من منشورات قناة «مِن وحي القراءة»:

تعليقٌ على كلمةٍ للإبراهيميّ

الشيخ خالد بن محمَّد حمُّودة

-وفقه الله-

• مِن قناة: «مِن وحي القراءة».

● للإشتراك بالقناة اضغط هنا:

https://t.me/men_wahei_alkiraa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

• قال الشَّـيخ المجاهد محمد البشـير الإبراهيمي في حفل ختم رفيق دربه الإمام عبد الحميد ابن باديس -رحمهما الله- تفسيره لكتاب الله سنة (١٩٣٨م):

"هذا هو اليوم الذي يختم فيه إمام سـلفي تفسـير كتاب الله تفسـيرًا سـلفيًا ليرجع المسـلمون إلى فهمه فهمًا سـلفيًا، في وقتٍ طغتْ فيه المادة على الروح ولعب فيه الهوى بالفكر، وهفتْ فيه العاطفة بالعقل، ودخلتْ فيه على المسـلم دخائل الزيغ في عقائده وأخلاقه وأفكاره، وفي أمة تقطعتْ صلاتها بالسَّلف وضعف تقديرها للقرآن، فأصبح ملهاة آذان ومشـغلة لسـان، وأصـبح حفاظها يقْرَأُونَه للتبرّك أو يتجرون به في المقابر، وعوامه ينزلونه منزلة البصـل والكرّاث فيسـتشـفون بحروفه من أمراض سـببتها الحرارة أو جلبتها البرودة، وعلماؤها يدرسـونه بلغة المصـطلحات العرفية، ويتناولونه بأذهان حشـيت بالأفكار الطائفية، والتعصـبات المذهبية، والمحامل الجدلية، والتوجيهات اللفظية، وبكتب مُلئت بالاسـرائيليات المصـنوعة والآثار الموضـوعة والنظريات؛ والطلبة -وهم صـرعى هذه الفتن- يتلقونه بألسـنة جافت البيان العربي وصـرفتها العجمة في منهاج غير منهاج العرب، ففسـد الذوق واختلَّ التصـور -وبأفكاره غطَّى عليها الجمود وسـدَّ عليها منافد التفكير- وبنفوس ركبها الملل والسأم، فرضيتْ بسماع مالا يُفهم وتلقي ما لا يُعقل، وهان الزمان في حسابها فأصبحتْ تنفق منه جزافًا، واختلَّ تقدير الأشياء عندها فأصبح كل مقروء علمًا وكل قارئ عالمًا.

وأشـهدُ؛ لقد كنتُ ضـيفًا بتونس منذ سـبع عشـرة سـنة، فقيل لي عن عالم من مشـايخ جامع الزيتونة ومن أبعدهم صـيتًا في عالم التدريس: "إنه يُقرئ التفسـير"؛ فشـهدتُ يومًا درسـه لِأُكوِّن فكرة عن دراسـة التفسـير في ذلك المعهد الجليل؛ وكنتُ معنيًّا بهذا البحث وجلسـتُ إليه أكثر من نصـف سـاعة، فوالذي نفسـي بيده ما سـمعتُ منه كلمةً واحدةً من الآية التي موضوع الدرس ولا لمحتُ أمارة ولا إشارة تدُلّ على أنَّ الدرس في التفسير؛ وما كان كل الذي سـمعتُ إلا حكاية لجدل عنيف وتمثيلًا لمعركة لفظية مسـتعرة بين السـيد الجرجاني وعبد الحكيم حول عبارة لعلها لمفسـر من المفسّـرين الاصـطلاحيين، ثم انقضت الحصة وقام الطلبة المساكين يتعثرون، تبدو عليهم سيماء التعب والملل والخيبة، وقمتُ أنا مستيقينًا أنَّ هذه الطريقة في التفسير هي أكبر الحجب التي حجبتْ المسلمين عن فهم كتاب الله ثم زهدتهم فيه وصدتهم عن موارده"اهـ.

[(مجلة «الشـهاب») | (الجزء الرابع، المجلد الرابع عشـر، جوان-جويلية ١٩٣٨، ص٢٧٧)].

التَّعليق

هذا الكلام الذي يذكره الشيخ البشير - رحمه الله - هو وصفٌ لحالة العلم كيف كانت في بدايات الفترة الَّتي أدركها هو في تونس، وكانت في النِّصف الأوَّل من القرن الرابع عشر، قبل النَّهضة العلمية التي قام بِها علماؤنا في العلوم الشرعية في النصف الثاني من ذلك القرن.

كلامه في الحقيقة وصفٌ للطريقة السيئة الَّتي كانت سائدة في تناول تفسير القرآن، وهي (الطريقة الاصطلاحية) البحتة، الَّتي تُغرِق في الاصطلاحات، وتذهبُ مستطرِدةً في مسائل فرعيَّة ليست من موضوع التفسير، ولا تتعلَّق بما أُنزل القرآن من أجله، وهو تدبُّر معانيه،

وفهم مقاصده ومراميه، وتحقيق ما يرمي إليه من إصلاح العقائد وتَهذيب النُّفوس والأعمال، وإصلاح شؤون المسلمين أفرادًا وجماعات.

وهي ليست ظاهرة في التفسير فقط؛ بل في كثير من العلوم في العصور المتأخرة لمَّا فسدت العلوم، كان من مظاهر فسادها العنايةُ بالأشكال والمظاهر في العلم، من غير غوصٍ إلى ما يحقق المقصود من ذلك العلم.

لذلك تجد العلماء الكبار في شتَّى الفنون دائمًا ينبِّهون إلى هذا الغرض، إلى عدم الإغراق في الأمور اللَّفظية الاصطلاحية التي ليست من صلب ذلك العلم، وإنما استُجلبت لتحقيق بعض الأغراض، فينبغي أن يُوقَف عند تحقق ذلك الغرض.

كما نجد مثلا في كتب ابن تيمية – رحمه الله – التنبيه على ما يفعله بعض النحاة من الإغراق في الحدود والتعاريف والوقوف عندها، حتى تجد الواحد منهم يذكر مثلا عشرين تعريفًا للعلم، وفي النهاية لا يَسلَم لهم تعريفٌ يتفقون عليه، ونجد هذا في مصطلح الحديث أيضا، ونجده في علوم البلاغة، وفي أصول الفقه، يقفون عند أمور شكلية جانبية، ويتوسع فيها البحث حتى يشغل طالب العلم عن المقصود الذي وضع من أجله ذلك العلم.

و إذا صح لنا أن نُسمِّي أصحاب هذه الطريقة تسميةً ما، فلا أجد أفضل من التسمية التي ذكرها الشيخ البشير في هذا النصِّ وهي قوله: «المفسرون الاصطلاحيون»، فإذًا: عندنا «أصوليون اصطلاحيون»، و«بلاغيون اصطلاحيون»، و«مفسرون اصطلاحيون»، و«نحاة اصطلاحيون»، وهكذا قل في سائر العلوم.

ماذا يقابل هذه الظاهرة الاصطلاحية؟ يقابلها «أصحابُ المَلَكَة»، فعندنا إذًا: «الاصطلاحيُّون»، وعندنا: «أصحاب الملَكَات»، وصاحب المَلَكَة هو الَّذي يتصرَّف في العلم بالملكة، بحيث يُحقِّق الغرضَ الذي وُضع من أجله ذلك العلم ويتحقَّق به، فالنحو مثلًا وُضع من أجل إصلاح اللِّسان وإقامته، أي: من أجل تصحيح النطق ومعرفة كيفيات الكلام، فصاحب الملكة النحوية يتصرَّف في النحو من هذا الأساس، ويعتني بإتقان ما يُصحِّح اللسان ويقيمه، وإذا وجدت في كتب النَّحو مسألةً لا تُحقِّق هذا الغرض فليست منه؛ وإنما استُجلبت لتحقيق غرض معيَّن، فهذه لا يتكثَّر منها صاحب المَلَكَة.

كذلك أصول الفقه، تصرُّف أصحاب الملكات فيه هو العناية بما وُضع علم أصول الفقه من أجله، وذلك هو دراسة المسائل الَّتي تنبني عليها فروع فقهية، حتى يكون التفريع صحيحا سليما، فكلُّ مسألة لا ينبني عليها تفريعٌ فليست من أصول الفقه، وقد نبه على هذا الشاطبيُّ في المقدمة الرابعة من المقدمات التي افتتح بها كتابه: «الموافقات»، قرر أن كل مسألة لا ينبني عليها فرعٌ ولا تُعِينُ على ذلك فهي عارية فيه، وليست منه.

نجد كذلك العلماء في التفسير و البلاغة يذكرون مثل هذا المعنى الذي يجب مراعاته.

في كلامه أيضًا إشارة إلى شيءٍ آخر مهمٍّ: وهو منهج تلقِّي العلوم و تلقينها، فإن من أسباب الضَّعف في تحصيل العلم الضَّعفُ والقصور في مناهج التعليم وطرق التدريس، فانظر إلى هذا المفسِّر الذي يحكي عنه أنه جلس مجلسا كاملًا في التفسير لم يسمع منه شيئا يتعلق بالتفسير، وإنما هي مباحث بلاغية بين أصحاب الحواشي وأصحاب الكتب البلاغية خارجة عن غرض التفسير، هذه من أين جاءت؟! هذه جاءت من كون الطريقة المتبعة في التلقين غير صحيحة.

فالمتعلم إذا جلس في مجلس التفسير لا يقع في خلده أصلًا أنه سيبحر في دقائق مسائل البلاغة والاختلافات اللفظية التي دأب كثير من أصحاب الحواشي على التدقيق فيها.

فإذًا، لابد أن يكون التَّلقين على طريقة سليمة.

و لهذا؛ فإننا نجد مثلا ابن عاشور – وكان هو شيخا في تونس قبل البشير الإبراهيمي، وهو من شيوخه – في صدر رسالته الَّتي وضعها في البلاغة المسمَّاة بـ«موجز البلاغة» لفت إلى هذا المعنى، حيث ذكر أنه وَجَد الطلبة يأخذون علم البلاغة أخذًا لا يُحقِّق لهم الغرض، يذهبون مباشرة إلى «رسالة الاستعارات» لأبي الليث السَّمرقندي، ثم منه إلى «مختصر المعاني» للتفتازاني، ثم يفيضون في المطولات بطريقة غير صحيحة، قال ابن عاشور واصفًا حالهم: «في ابتدائهم شَوْط، وفي انتقالهم طفرة»! فلا بدَّ أن تكون البداية سليمة، ويكون الانتقال صحيحًا، حتَّى تكون النِّهاية مثمرة، فوضع لهم «موجز البلاغة» من أجل تصحيح طريقة أخذ هذا العلم.

والحاصل أنَّنا نستفيد من كلام البشير – رحمه الله – أمرين اثنين:

الأمر الأول: ضرورة تصحيح طريقة الأخذ، أن تكون المناهج المعتمدة مناهجَ تُحقِّق الغرض الَّذي من أجله وُضعت تلك العلوم.

الأمر الثاني: صرف العناية إلى أن يُتصرف في العلوم بتصرُّف «أصحاب الملكات»، بحيث يكون التركيز على ما وُضعت تلك العلوم من أجله، وما عُقدت تلك المجالس من أجل تحقيقه، ومجانبة طريقة «الاصطلاحيين» الَّذين يقفون عند الاصطلاحات ويُغرقون فيها إغراقا يشغلهم عن المقصود ويصرفهم عنه.

فإن قال قائلٌ: أليس التَّعمُّق في علوم الآلة مطلبُ كلِّ طالبِ علم متقدِّمٍ؟

جوابه: فرق بين التَّعمُّق في علوم الآلة على طريقة أصحاب الملكة فهذا لا ينكره عالم، وهو الذي فعله العلماء وحرضوا عليه، وبين التعمق في الاصطلاحات الشكلية التي لا ينبني عليها شيء من مقاصد تلك العلوم، فهذا الثاني هو الذي أنكره الإبراهيمي.

هذا الَّذي ظهر لي تعليقًا على كلامه، و الله تعالى أعلم.

تم بحمد الله